

العلامة محمد إقبال كما عرفته

إحسان حقي (١)

لعلّي من الأفراد القلائل الذين يتمتعون اليوم بالحياة من الذين عرفوا العلامة المغفور له محمد إقبال عن كثب وعاشروه، وكانت لهم به صلة صداقة ومحبة.

لا شك أنه يوجد في باكستان وربما في غير باكستان أناس يكبروني سنا وعاشوا في الزمن الذي كان فيه فقيده الإسلام حيًا، بل ربما كانوا من أهل بلده أيضًا، ولكن لم يسعدهم الحظ بمعرفته إلا بالاسم إما لأنهم بعيدون عن شخصية إقبال ومحيطه العلمي والأدبي، أو لأنهم لم يكونوا يطمعون بالقرب منه بالنظر إلى منزلته الرفيعة.

أما أنا فقد رفعت من أمامي الحواجز والحجب، وكانت لي بالمغفور له صداقة أعتز بها، لا سيما وأني كنت أرى من المغفور له من العطف واللفظ أكثر مما كنت أتوقع، على الرغم مما بيننا من فرق شاسع في العمر والمنزلة.

١- هو من الأصدقاء المخلصين للعلامة محمد إقبال، وله عدة مؤلفات عن باكستان والقضايا الإسلامية والدولية، منها:

- ١- مأساة كشمير المسلمة.
 - ٢- باكستان ماضيها وحاضرها.
 - ٣- تاريخ شبه القارة الهندية الباكستانية منذ أربعة آلاف سنة وإلى اليوم.
 - ٤- ترجم أحد كتب الهنادكة المقدسة، وهو كتاب العادات والطقوس، أو التشريع الهندوكي المعروف باسم منو سمرتي، وعلق عليه، وقارنه بأحكام الديانات الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية.
- حائز على وسام النجم الباكستاني.
 - وله دور شامل في نضال وكفاح الشعوب ضد الاستعمار.

توفي الدكتور إحسان حقي عام ١٩٩٢م بعد حياة حافلة بالأعمال العلمية والكفاح الفكري والعملية لاستعادة مجد الأمة، رحمه الله رحمة واسعة.

كنت على صغر سني آنذاك إذ ترجع صلتي بالمغفور له إلى أواخر العشرينات، كنت ألقى منه معاملة الصديق لصديقه أو الند لنده، وقد رفعت الحجب بيني وبينه، فكنت أزوره متى شئت، وأكتب إليه في بعض ما يعرض لي فيجيبني بخط يده.

ولما أنشأ دائرة المعارف الإسلامية أو المجمع العلمي الإسلامي سنة ١٩٣٣م انتخبني عضواً فيه على الرغم من وجود كثير من الأساتذة والعلماء الذين دعوا إلى الجلسة الافتتاحية بصفة مندوبين ومستمعين فقط، وكان المغفور له يود أن يجعل من هذا المجمع نواة لمجمع علمي للدراسات الإسلامية على أسس علمية واسعة النطاق، لكنه لم يبلغ أربه لأن الأمراض عاجلته وتوفي في ٢١ أبريل ١٩٣٨م، وبموته ماتت الفكرة إذ لم يقم بعده من يتولاها.

قلت إنني من القلائل الذين ما زالوا على قيد الحياة من الذين لهم صلة بالمغفور له، وتكاد تكون هذه الصلة وساماً لي، إذ حينما أكون في باكستان ويريد أحدهم أن يعرفني بآخر يقول له: أقدم إليك الدكتور حقي صديق العلامة إقبال، فترتفع منزلتي عنده لهذه الصفة، وإذا ذهبت إلى السوق مع صديق باكستاني ورأى أن التاجر يغالي بسلعته يقول له: يجب أن تراعيه لأنه صديق العلامة إقبال، وكان التاجر يراعيني فعلاً.

وكلامي عن العلامة إقبال يختلف عن كلام غيري من الناس، لأنني عرفته عن كثب وعاشرته بينما يتكلم أكثر المتكلمين عنه بما يقرؤونه من شعره وأدبه، والفرق بين الحالتين كبير.

العلامة محمد إقبال هو ابن نور محمد بن محمد رفيق الذي هاجر من موطنه كشمير، وأتى وسكن سيالكوٹ، ولذا فهو پنجابي المولد، وعاش في البنجاب إلى آخر أيام حياته، وعلى هذا الاعتبار فقد كان منذ طفولته يتكلم اللغتين البنجابية والأردية، ثم لما درس، تعلم العربية والفارسية والإنكليزية وكان له إلمام باللغة الألمانية، وقد قال الشعر باللغتين الأردية والفارسية، وأكبر دليل على أنه شاعر ملهم وعبقري فذ، أنه لم يذهب قط إلى إيران ولا عاشر إيرانيا وعدّه الإيرانيون من أكبر شعراء الفارسية، ولقد قرض شعره وأدبه شعراء إيران ورفعوا منزلته الشعرية فوق كثير من فطاحل شعرائهم، لأن شعره لم يكن ثرثرة وعواطف، بل كان شعر حكمة وفلسفة وعلم، ويزين كل هذا أنه كان يجوم دائماً حول القضية الإسلامية التي كانت تشغل باله منذ صغره، ويود أن يرى العالم الإسلامي في أوج العظمة كما كان في السابق. فقد نشأ العلامة إقبال: "نشأة إسلامية إذ كان أبوه يسأله كل يوم وعلى فترة ثلاث سنوات: ماذا تصنع يا إقبال بعد صلاة الصبح؟ ويقول إقبال: "كنت أقول لوالدي: لماذا تسألني عما أعمل وأنت تعلم

ما أعمل؟ فيقول لي والدي: إني أعلم أنك تقرأ القرآن بعد الصلاة، ولكنني أريد أن تقرأه وكأنه أنزل عليك".
ولد العلامة إقبال في ٣ ذي القعدة ١٢٩٤هـ الموافق ١١/٩/١٨٧٧م وتوفي في ٢٢ صفر
١٣٥٦هـ الموافق ٢١/٤/١٩٣٨م أي أنه بلغ إحدى وستين سنة من العمر فقط، قضاها كلها في خدمة
العلم والإسلام والمسلمين، قلت إني كنت من عشراء المغفور له، فإني قد اطلعت على حياته الداخلية وربما
يكون في ذكر طريقة حياته ما يدل على خلقه وعلمه.

كان المغفور له يجلس كل يوم بعد العصر في صحن داره في الأيام التي لا يستطيع فيها المرء أن
يجلس داخل الغرف بسبب الحر، وفي الشتاء كان يجلس داخل غرفة الاستقبال فيزوره الأصدقاء،
ويجلسون إليه بلا تكلف ولم تكن داره لتخلو من الأصدقاء في كل يوم، ولكنهم لم يكونوا من عرض
الطريق بل من النخبة العلمية، ولم يكن الدخول عليه يحتاج إلى إذن مسبق، إذ لا يقصده بعد العصر إلا
الأصدقاء، وأما أصحاب المصالح فقد يأتون في الصباح، لأن المغفور له كان يتعاطى مهنة المحاماة وكانت
جلسته جلسة هادئة، إذ كان يجلس في كرسي لا يختلف عن كراسي أضيافه، وكانت قصبه النرجيلة
لا تفارق فمه، وكان وهو بين الحضور وكأنه يسبح فوق الغيوم، فهو يستمع إلى أحاديث جلسائه،
ولا يتكلم إلا لكي يعلق على كلمة أو ليجيب على سؤال، وكان كلامه هادئا. أما شأنه معي فقد كان
يختلف عن ذلك، إذ كان يسألني عن سورية أولاً ثم عما أعرف من البلاد الإسلامية وحال المسلمين فيها
ثانياً، وكانت القضية الإسلامية هي شغله الشاغل، وكان متألماً جداً لضياح الخلافة، وكان يتكلم عن
المسلمين بحسرة وألم، لكنه لم يكن يائسا بل كان موقفاً بنهضة المسلمين.

وكان رحمه الله فيلسوفاً بالفعل لا بالقول، وكان زاهداً في الحياة، فلا يطمع منها بأكثر مما يسد
رقمه ويقيم أوده، ولذلك فقد كان إذا أتاه مبلغ من المال من القضايا التي كان يرافع فيها، فإنه كان يدفع
هذا المال إلى وكيل خرجه، ثم يقول له أخبرني قبل أن ينتهي هذا المال لكي أعمل للحصول على غيره. وأما
مادام عنده ما يكفي فإنه لم يكن يأخذ قضية يرافع فيها، ولذلك فإنه لم يخلف وراءه غير الدار التي كان
يسكنها، ولكنه ترك للعالم كله وليس لأهله أو لباكستان فقط إرثاً كبيراً من العلم والأدب والفلسفة.

كان إقبال مشهوراً كشاعر وفيلسوف في الهند، ولكن شهرته في أوربة كانت أعظم من شهرته في
بلادها، لأن الأوربيين كانوا على منزلة رفيعة من العلم تفوق ما كان عليه الهنود، ولذا فإنهم كانوا يقدرون
ما ينطوي عليه هذا العبقرى من أفكار فلسفية وعلوم واسعة وآراء بعيدة المدى.

كان الإنكليز منذ أن وطئت أقدامهم البلاد الهندية في القرن السابع عشر وقبل أن يهدموا صرح
الإمبراطورية الإسلامية سنة ١٨٥٧م يعتمدون على الهنادكة في تسيير سياستهم، لأنهم كانوا يعلمون بأن

المسلمين لن يخلصوا لهم لأنهم سلبوهم ملكهم، ولكن الهنادكة كانوا مخلصين للإنكليز وكانت كل سياستهم تدور حول الاستيلاء على الهند مباشرة أو تحت حكم إنكليزي. وقد خدع كثير من المسلمين في بادئ الأمر بالمؤتمر الهندي وانضموا إليه لأنهم ظنوا بأن الهنادكة يعملون للوطن وليس للهندوكية، ولكن العلامة إقبال أدرك بعين بصيرته وبما له من معرفة بما تنطوي عليه الديانة الهندوكية من عداة للإنسانية، بأنه من المستحيل أن يعمل الفريقان معا لخدمة الهند ومصالح أهلها كلهم من غير تفريق بين دين وآخر، ولذا فإنه كان من دعاة خلق دولة إسلامية وأخرى هندوكية، وقد فهم بعض زعماء المسلمين ولو متأخرين هذه الحقيقة، وعملوا برأي العلامة إقبال، وطالبوا الإنكليز حين أجبروا على ترك البلاد الهندية بأن تقسم البلاد بين المسلمين والهنادكة، وفي مؤتمر إله آباد الذي عقد سنة ١٩٣٠م وكان رئيسه العلامة إقبال، وقال في خطبته الافتتاحية بضرورة إقامة دولة إسلامية وأخرى هندوكية، وأصر على ذلك، لأن لكل من الفريقين آداباً وأخلاقاً وعادات وعقائد تختلف عن الفريق الآخر، وأن الهنادكة على الرغم من أنهم كانوا يعيشون في ظل الإمبراطورية المغولية وغيرها من الممالك الإسلامية التي ظهرت في الهند عيشة سعيدة يلقون فيها كل احترام ومحبة وتكريم من قبل المسلمين، فإنهم كانوا حاقدين على المسلمين لأنهم انتزعوا منهم ملايين الهنادكة الذين اعتنقوا الإسلام طائعين مختارين، وقد تأثر كثير من الزعماء بأقوال العلامة إقبال، فأصبحوا يفكرون بدولة إسلامية وليس سواها.

وهنا لا بد لي من أن أتطرق إلى البحث عما لقيه المسلمون من غدر الهنادكة بعد تقسيم البلاد، إذ قضت المعاهدة التي وقعت بين الفريقين الهنادكة والمسلمين بتقسيم البلاد إلى دولتين، على أن تراعى في كل دولة الأكثرية الدينية، فكانت الدولة الإسلامية تضم جزأين من البلاد، أحدهما في الشمال الغربي وهو ما يسمى اليوم بباكستان والثاني في الجنوب الشرقي وهو ما يسمى اليوم ببنغلاديش. وكانت هذه الدولة أكبر دولة إسلامية ذات شأن بعد الدولة العثمانية، ولذا فإن الهنادكة أضمروا هدمها وأعلن زعماءهم ذلك صراحة في مناسبات كثيرة، وظلوا يعملون حتى هدموا هذا الكيان الإسلامي، وشطروا هذه البلاد الإسلامية إلى شطرين باكستان وبنغلاديش، وكانوا يظنون أن بمقدورهم السيطرة على بنغلاديش، ولكن من حسن الحظ أن بنغلاديش ظلت بلداً إسلامياً، وظلت على صلوات حسنة بباكستان، لأنها أدركت أن مجيب الرحمن زعيم فكرة الانفصال كان عميلاً خائناً فقتلوه هو وعائلته.

وما ارتكبه الهنادكة ضد المسلمين، أن اتفاقية الاستقلال كانت تقضي بأن تضم الإمارات الوطنية التي كانت تعد نحو ٦٥٠ إمارة بين صغير وكبير إلى البلاد التي هي فيها، فالإمارات الموجودة في هندوستان يجب أن تضم إلى هندوستان، والإمارات الموجودة في باكستان يجب أن تضم إلى باكستان، سواء

أكانت إمارات هندوكية أو إسلامية، وأما الإمارات التي على الحدود بين البلدين يستفتى أصحابها في البلد الذي يريدون الانضمام إليه، على أن تبقى الأفضلية للدين، فالإمارة الحدودية المسلمة تنضم إلى باكستان، والإمارة الحدودية الهندوكية تنضم إلى هندوستان، غير أن الهنادكة لم يوفوا بهذا العقد بل ما كاد الإنكليز يخرجون من البلاد حتى انقضوا على كشمير، فاستولوا على أكثرها، مع أن تسعين في المائة من أهلها من المسلمين، وكذلك انقضوا على إمارة "جونانگڑھ" وكان لإمارة "حيدر آباد" امتياز خاص إذ أن المعاهدة قضت بأن تظل هذه الإمارة الكبيرة مستقلة عن باكستان وهندوستان، إلا إذا شئت هي الانضمام إلى أحد الطرفين، وكان من البدهي أن تبقى مستقلة أو أن تنضم إلى باكستان المسلمة، ولذلك فقد عاجلها الهنادكة واستولوا عليها بالحرب ظلما وعدوانا.

هذه لمحة عن العلامة المغفور له محمد إقبال، أو: محمد إقبال في مبادئه، وأترك الحديث عن أعماله العلمية إلى غيري من الأدباء الذين سيعالجون هذا الموضوع.

وعلى كل حال فإن الكلام عن العلامة إقبال يحتاج إلى مجلدات، لأنه من الرجال القلائل الذين لا يجود بهم الزمن إلا على فترات متباعدة.

قلت إن الأوربيين قدروا العلامة إقبال وفهموه أكثر من الشرقيين ومن أهل بلده أيضًا، ولذلك فقد قررت لجنة نوبل إعطائه جائزة نوبل، ولكنه رفض ذلك، لأنه كان يقدر نفسه حق قدرها، ولم يكن بحاجة إلى نوبل لكي ينبله ولما أراد الإنكليز سنة ١٩٢٢م منحه لقب، "سر" اشترط عليهم لقبوله أن يمنح أستاذه مير حسن لقب "شمس العلماء" وهذه أخلاق تدل على نبل وعلى اعتراف بالجميل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
